مقدمة

obeikandl.com

obeikandl.com

مُقَدِّمَة

فاجأتنا الألفية الثالثة بانفلات العولمة من عقالها تقودنا إلى بداية طريق مجهول تتهاوى فيه النظم والأفكار بين غمضة عين وانتباهتها؛ لتفسح الطريق للوضعية العلمية والصلف الفكري النفعي. غير عابئة بالثقافات والسلوكيات والأخلاقيات، وكأنما هي نهاية التاريخ أو رحلة إلى الهاوية.

وقد ذهب البعض إلى أن ذلك هو الشر المستطير الذي يجب أن نغلق في وجهه النوافذ والأبواب، والبعض رأى أن العولمة واقع يجب أن نتعامل معه بحذر وحرص شديدين بحيث لا نسمح لها باقتلاعنا من جذورنا وطمس هويتنا، كل ما في الأمر أنه يجب علينا أن نتسلح لنعرف كيف نتعامل معها، وننتقي أحسن ما لديها، وما نحن بحاجة حقيقية إليه ولا نقدر عليه.

ولا شك أنها رياح تكاد تعصف بالأيولوجيات والأعراق، تستدعي استخدام العقول لفهم الواقع ودراسة الأحداث والتفاعل معها، وليس الاكتفاء بدور المتفرج الذي لا يملك من أمر نفسه حولاً ولا قوة.

لقد بدأت رياح العولمة تهب على منطقة الشرق الأوسط في العقد الأخير من القرن المنقضي في صورة سلسلة من التفاعلات الخارجية ومع الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا بصفة خاصة، وسلسلة من التفاعلات الداخلية في صورة عدد من الإجراءات في طريق التحول إلى اقتصاد السوق دون سابق إعداد لهذه الخطوة، الأمر الذي ترتب عليه حالة من الانشقاق والتضاغط في السياسات الداخلية والخارجية، ولم يكن أمام النظم القائمة في هذه المنطقة سوى محاولة الاندماج في الاقتصاد العالمي أو اللحاق بركب العولمة.

ولما كانت العولمة قد ولدت لتبقى، وأنها نتاج عملية تاريخية كبرى قفز فيها المنتج التكنولوجي وسبق السياسي والاجتماعي، يسير الأول بسرعة فائقة، بينما لا يزال الثاني بطيئًا يحتاج إلى تغييره وقتًا طويلاً لأنه مربوط بموروثات ثقافية شديدة العمق. ومن الواجب تعميق العولمة لأنها تحل الكثير من المشاكل وليس كل مشاكل البشر. وليست حركة "ضد

العولمة " تياراً عالميًّا وإنما هي تيار خاص بثقافة معينة عاجزة عن التكيف مع الحداثة، ولا يوجد لديها ما تطرحه كبديل للرأسمالية.

لقد أنها المعسكر الاشتراكي منذ بداية التسعينيات من القرن الماضي، وانفرد النظام الرأسمالي بالساحة الاقتصادية، ومن أهم الكتابات التي ساعدت على تمهيد هذه الأجواء كتاب "نهاية التاريخ" للمفكر الأمريكي الياباني الأصل "فرانسيس فوكوياما" حيث يرى انتصار نظام السوق والنظام الاقتصادي الرأسمالي باعتبارهما الاختيار النهائي للبشرية لتحقيق مجتمع التنمية المستديمة والتقدم والاستقرار.

والرأي عندي أن العولمة هي مرحلة متطورة من مراحل الإمبريالية العالمية، أو لون من ألوانها، وإن لم يكن ذلك فهو نظام جديد غير العالمية يجذب العالم كله إلى هوة سحيقة تكاد تودي به، حتى أولئك الذين يقودون قاطرتها إن لم تتوقف لتضفي على سلوكها الطابع الإنساني والاجتماعي.

والعولمة الاقتصادية مرحلة من مراحل النظام الاقتصادي الرأسمالي، تذوب فيه الشئون الاقتصادية للدول في الإطار العالمي دون اعتبار للحدود السياسية، وينتقل الإنتاج الرأسمالي إلى عالمية الإنتاج وإعادته تحت قيادة المعسكر المتقدم والشركات المتعدية الجنسيات والمنظمات العالمية، وتكف يد الدول الوطنية عن التدخل في النشاط الاقتصادي.

وتنبثق من العولمة الاقتصادية عولمة مالية تتعلق بالثورة العارمة في عولمة الأسواق المالية، حيث تتدفق رؤوس الأموال إلى أسواق المال والبورصات في كل بقاع الدنيا دون قيود ودون الحاجة إلى اتخاذ أية إجراءات حكومية، وتعتمد حركة الاستثمارات على استقرار الدولة ومعدلات الربح المتوقعة والضرائب المزمع فرضها.

وفي المجال السياسي تذوب الشئون السياسية للدولة القومية في الإطار العالمي، إذ لا أهمية للحدود السياسية للدول، ويكون الاتجاه إلى إرساء دعائم الليبرالية الجديدة وهي: الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان والتعددية السياسية.

وعلى الجانب الثقافي تذوب ثقافة وسلوكيات الدولة القومية في الإطار العالمي دون اعتبار للحدود السياسية، ويتنامى الاتجاه نحو صياغة ثقافة كونية موحدة تجمع شعوب العالم.

ومع أن الثقافة الكونية هي حلم الليبراليين والاشتراكيين على حد سواء رغم سطوة الأيدلوجيات القومية، إلا أن الدولة القومية، والثقافة القومية، لا زالت إلى حد بعيد هي هدف البشرية. ومع ذلك جاءت الحرب العالمية لتدحض هذه الرؤية وتعلق سيطرة الأيدلوجيات فوق القومية، وساعد في ذلك عالم التكتلات والمعسكرات الأيدلوجية الذي أعقب الحرب، حيث أعيد تقسيم البشرية بصورة ساعدت على تخطي العقبة السياسية نحو ثقافة عالمية، فظهرت الإمبريالية الثقافية الشيوعية، والإمبريالية الثقافية الرأسمالية لتحل جزئيًّا محل النزعة القومية.

ويمكن وصف هذه المرحلة بالمعلوماتية الرأسمالية، حيث أصبحت المعلومات هي الهدف الرئيسي في العملية الإنتاجية، وأصبحت تعامل كسلعة لها تكلفة وعائد من ورائها. كما صاحبها ثورة هائلة في تكنولوجيا الاتصالات التي اختزلت المسافات من خلال القنوات الفضائية وشبكة المعلومات الدولية.